الفصل الثاني

الكذب، والتّسرّب، وقرائن وجود الخداع

بعـد ثماني سنوات مـن استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون، أنكـر أنه كذب في السابق، ولكنــه اعتـرف شأنه شأن باقي السياسييـن باللجوء إلى المراوغة، وأشـار إلى أهمية كسب العلاقـات العامة والمحافظة عليها قائلاً: لا يمكنك قول ما تفكر فيه بشأن هذا الشخص أو ذاك؛ فقد تحتاج إلى الاستعانة به يوماً ما... ولا تستطيع الإفصاح عن آرائك في قادة العالم؛ فقـد تضطـر للتعامل معهم فـي المستقبل[1]». وليـس نيكسون وحده الـذي يتجنب مصطلح الكذب عندما يكون الكـذب مشروعاً.* يذكر معجم أكسفورد: «في الاستخدام الحديث، تعدّ كلمة «الكذب» في العادة مصطلحاً قاسياً للتجريم الأخلاقي، ويميل الأشخاص في محادثات الكياسة إلى تجنبه.

* قد تتغير الاتجاهات؛ فقد سوّغ جودي باول ، السكرتير الصحفي للرئيس السابق جيمي كارتر، بعض الأكاذيب قائلاً: منذ اليوم الأول، سأل أول صحفي المسؤول الحكومي أصعب سؤال؛ عمّا إذا كانت هناك ضرورة لمناقشة ما إذا كان للحكومة الحقُّ في الكذب من عدمه. فكان الجواب: نعم، يحقّ لها ذلك. في بعض الظروف والمواقف، ليس للحكومة الحقُّ في الكذب فقط، بل عليها الكذب أيضاً. فقد واجهت في أثناء عملي في البيت الأبيض مثل هذا الأمر مرتين». واسترسل في وصف واحدة منها حين كذب ليجنب بعض الناس الأبرياء تماماً الألم العميق والإحراج، واعترف أنّه كذب مرّة أخرى في التغطية على الخطط العسكرية بشأن إنقاذ الرهائن الأمريكيين في إيران(جودي باول، الجانب الآخر من القصة، نيويورك: وليامز موروز وشركاه المساهمة، 1984م).

فـي كثير من الأحيـان، تُستعمـل مرادفـات لمفهوم الكـذب كالزّيف، وعـدم الصدق بوصفهـا بدائل أقلّ حدّة في الوصف[2]. من السهل نعت الشخص غير الصادق بالكاذب إذا كان شخصاً غير مرغوب فيه، ولكن استخدام ذلك المصطلح صعب جدّاً إذا كان الشخص غير الصادق محبوباً أو أنه محطّ إعجاب وتقدير.

قبـل فضيحـة ووترجيـت بسنـوات، بيّـن نيكسـون الكـذب لخصومـه الديمقراطيين مداعبـاً: هل تشتري سيارة مستعملة مـن هذا الرجل؛ الكاذب والمحبوب؟ أشاد معجبوه من الجمهوريين بهذه القدرة على الإخفاء والتمويه على أنّها دليلٌ على دهائه السياسيّ.

علـى كلّ حال، لا تتعلق هذه القضايـا بتعريفي للكذب أو الخداع، فأنا أستعمل الكلمتين هنـا للمعنى نفسـه، إنّ كثيراً من الأشخاص، كأولئك الذيـن يقدمون معلومات غير صحيحة من دون قصد، ليسوا صادقين، لكنهم لا يكذبون، فالمرأة المصابة بوهم جنون العظمة على أنّها مريم المجدلية ليست كاذبة، على الرّغم من أن ادعائها غير صحيح. وإعطاء عميل ما نصيحـة استثماريـة غير موفقة ليس كذباً، إلّا إذا كان الناصـح يعلم عند إعطائه النصيحة أنهـا غير صحيحـة، والشخص الذي يعطي انطباعـاً زائفاً بمظهره ليـس بالضرورة كاذباً، وتمويه حشرة (فرس النبي) نفسها كي تشبه ورقة شجر ليس كذباً، أمّا الشخص الذي يشير إلى ارتفاع جبينه على أنّه يمتلك ذكاءً أكثر مما يمتلك فكاذب.*

يستطيـع الكاذب اختيـار عدم الكذب، فتضليـلُ المتلقّي بالكذب متعمّـدٌ؛ لأنّ الكاذب ينـوي خداع هذا المتلقّي، ربما يمكن تسويغ الكذبـة أولاً من وجهة نظر الكاذب أو المجتمع، فقد يكون الكاذب شخصاً محترماً أو سيئاً، وقد يكون محبوباً أو مكروهاً.

---

* يُعدّ تخمين أساس هذه القوالب النمطية مثيراً للاهتمام، إذ يُفترض أن تشير الجبهة المرتفعة إلى وجود دماغ كبير، وأنّ الشخص صاحب الشفاه الرقيقة يكون قاسياً على عكس القرينة الدقيقة التي تشير إلى أنّ الشفاه تصبح أضيق في حالة الغضب، فضلاً عن أنّ استخدامَ علامة تدل على حالة عاطفية مؤقته أساس الحكم على السمة الشخصية خطأٌ أيضاً. يشير مثل هذا الحكم إلى أنّ الأشخاص أصحاب الشفاه الرقيقة يبدون كذلك؛ لأنهم يضيّقون شفاههم باستمرار عند الغضب، ولكن الشفاه الرقيقة قد تكون كذلك ميزة وجه موروثة. النمط القائل إنّ الشخص ذا الشفاه الغليظة شهوانيّ يسيء فهم القرينة الصحيحة، في أنّ الشفاه تغلظ وتحتقن بالدماء في أثناء الاستثارة الجنسية، ويكون حكمه غير دقيق باعتمادها ميزة دائمة؛ ولكن يمكن أن تكون الشفاه الغليظة أيضاً من ميزات الوجه الدائمة[3].

قـد يختـار الشخصـ الذي يكـذب أن يكـون كاذبـاً أو صادقـاً، على معرفتـه بالفرق بينهمـا[4]. لا يفـي الكاذبون، الذين يعرفـون أنهم يكذبون ولكنهـم لا يستطيعون التّحكّم في سلوكهـم، بمتطلبـات العيّنـة التي أبحـث عنها، ولا حتـى الأشخاص الذيـن لا يعرفون أنهم يكذبـون، وهـم ضحايا الخداع الذاتي.* بمـرور الوقت، قد تصبح الكاذبـة مقتنعةً بكذبتها، وبحـدوث ذلك لن تكون كاذبة، وسيكون عـدم صدقها لأسباب سأناقشها في الفصل التالي، صعب الاكتشاف، تُظهر حالة كذب وقعت في حياة موسوليني أنّ تصديق الشخص لكذبته قد لا يعـود بالفائدة دائمـاً؛ ففي عام 1938م، خُفّضت وحدات الجيش الإيطالي من ثلاثة أفواج إلى فوجين، وكانت هذه رغبة موسوليني؛ لأنه تمكّن من قول أنّ الفاشية امتلكت ستين فوجاً بدلاً من نصف ذلك العدد، ولكن التغيير تسبب بفوضى عارمة في الوقت الذي كانت فيه نُذُرُ الحرب تلوح في الأفق، ويبدو أنّ الكذبة خدعت أشخاصاً آخرين إلّا شخصه[5]».

ليسـ الـكاذب وحده من يجب التفكيـر فيه عند تعريف الكذب، ولكـن يجب أن يخضع المتلقّـي للدراسـة أيضاً، ففي الكذب لا يطلب المتلقّي أن يُضلَّل، ولا يعطي الكاذب أيّ إشعار مسبـق لنيّتـه القيام بذلك، ومن الغريب نعت الممثلين بالكاذبيـن، إذ يوافق جمهورهم على تضليلهم لبعض الوقت عن طيب خاطر، ولهذا السبب وُجِدَ الممثلون، فهم لا ينتحلون شخصية غيرهم كما يفعل المخادع، بل يُشعرون المشاهدين أنّ هذا مجرد تمثيل ليس إلّا، ولا النّاصح الذي أشار على الزبون بمعلومات غير موفّقة، ولن يكون هناك كذب لو أنّ المريضة النفسية مـاري أخبرت طبيبها أنها تدّعي شعوراً لا تمتلكه علـى وجه الحقيقة، ولن يعدّ هتلر كاذباً لو طلب إلى تشامبرلين ألّا يثق بوعوده.

إذن فـي تعريف الكـذب أو الخداع، ينوي أحد الأشخاص تضليل آخـر، ويقوم بذلك متعمداً دون إشعار مسبق للمتلقّي في تضليله، ودون أن يطلب إليه المتلقّي صراحة القيام بذلك.**

---

* ومع أنني لا أجادل في وجود الكاذبين مرضياً وضحايا الخداع الذاتي؛ لأن ذلك أمر صعب الإثبات، فإنّ ادّعاء الكاذب لا يمكن الاعتماد عليه دليلاً، فقد يدّعي أيّ كاذب هذه الافتراءات حال تم اكتشافه للتخفيف من العقاب الذي سيطاله.

** أشدِّد هنا على ما يدعوه جوفمان الأكاذيب السافرة «التي يمكن أن تكون دليلاً لا يرقى إليه الشّكّ، في أنّ الذي يقول الكذبة يعرف أنـه يكذب وهـو يقوم بذلك طواعيـة». لم يشدّد جوفمان على هـذه التفسيرات غير الصحيحة، ولكنه شدّد على غيرها، تلك التي يكون فيها الفرق بين الصواب والخطأ أقل ما يمكن للدفاع عنه: «... ولا يكاد يكون هناك مهنة أو علاقة لا يشارك فيها أصحابها بممارسات مخفية تتنافى مع الانطباعات المرعية» هـذان الاقتباسان من: (*The Presentation of Self in Everyday Life* (New York: Anchor Books, 1959), pp. 59, 64.)

للكذب شكلان؛ الإخفاء والتزوير[6]، حيث يحجب الكاذب في الإخفاء بعض المعلومات عـن المتلقّي دون قـول ما هو غير صحيح فعليّـاً، أما في التزوير، فتتبـع ذلك خطوة أخرى، إذ لا يحجـب الكاذب المعلومات الصحيحـة فقط، بل يقدم معلومات غير صحيحة على أنّها كذلـك. وفي كثير مـن الأحيان، لابدّ من الجمع بيـن الإخفاء والتزوير لنجـاح الخداع، فقد ينجح الكاذب أحياناً بالإخفاء فقط.

لا يُعدُّ الإخفاء كذباً عند الجميع، في حين ينعت بعض الأشخاص التزوير الجريء بكلمة فعـل الكذب[7]، فإذا لم يُبلغ الطبيبُ المريضَ أنّ مرضه مميت، وإذا لم يذكر الزوج لزوجته أنه قضى مدّة الغداء في نُزُلٍ مع أقرب صديقة لزوجته، وإذا لم يذكر الشرطي للمشتبه فيه أنّ هنـاك جهاز تنصّت يسجّـل المحادثة التي تدور بينه وبين محاميه، فهم جميعاً لم ينقلوا معلومات غير صحيحة. ومع ذلك، يشير كلّ مثال سابق إلى التعريف الذي قدمته للكذب، لم يطلب المتلقّون أن يُضلَّلوا، وقد حُجِبَتِ المعلومات بتعمد دون إعطائهم إشعاراً مسبقاً بنيتهم للتضليـل. لقد أُخفيت المعلومات قصداً لا عن طريق الخطأ. ولكن هناك استثناءات وأوقات لا يكـون فيها الإخفاء كذباً بسبب إعطاء إشعار مسبق، أو لأنه قد تمّ الحصول على الموافقة لحدوث الخداع والتضليل.

فـإذا اتفق الزّوجان علـى أن يمارس كلٌّ منهما علاقات جنسيّة خـارج نطاق الزّوجيّة، فـلا مانع – حينئـذٍ – من وجود علاقات عاطفية خارج هذا النطـاق، مع ضرورة إخفاء كلٍّ منهمـا علاقاتـه عن الآخـر، إلّا إذا طُلب إليه عـدم القيام بذلك مباشـرة. حينها، لن يكون إخفـاء الرذيلـة التي حدثت في النُزُل كذبة. وإذا طلب المريض إلى طبيبه ألّا يعلمه بنتيجة فحوصـه إذا كانت سيئة، فإنّ إخفاء تلك المعلومات لا يُعدّ كذباً. بالمقابل وبالحقّ القانوني، يحـقّ للمشتبه به ومحاميـه الحصول على محادثة خاصة. وعليه، يكـون إخفاء انتهاك ذلك الحقّ كذباً.

عندما يكون هناك خيار لطريقة الكذب، يفضل الكاذبون دائماً الإخفاء لا التّزوير، ففي الإخفـاء فوائد جمّة؛ إنّه أسهل من التزوير؛ فلا حاجة فيه إلى التّلفيق. وليست هناك فرصة للإمسـاك بالـكاذب إلا إذا أُعدّت القصـة بكاملها مقدماً. يُذكر عـن أبراهام لينكولن قوله أن ذاكرتـه ليسـت جيدة بما فيه الكفاية كي يكون كذّاباً. لو قدّم الطبيب تفسيراً غير صحيح

لأعراض المرض حتى يخفي عن المريض مرضَه المميت، فعلى الطبيب تذكّر التفسير غير الصحيح الذي قدمه من قبل كي يكون هو ذاته فيما إذا سُئل مرة أخرى عنه.

وقد يكون الإخفاء مفضلاً أيضاً؛ لأنه يبدو أكثر قبولاً من التزوير، وذلك أمر سلبيّ لا إيجابيّ، على الرغم من أنّ المتلقِّي قد يتأذى بالقدر نفسه. إنّ شعور الكاذبين بالذنب أخفّ وطأة في حال الإخفاء مقارنة بالتزوير،* فمن الممكن أن يحافظ الكاذب على الفكرة المطمئنة أنّ المتلقِّي يعلم فعلاً الحقيقة ولا يرغب في مواجهتها. يفكر مثل هذا الكاذب تفكير الزّوجة اللعوبة الآتي: على زوجي أن يعرف عن عبثي لأنه لا يسألني أين أقضي أمسياتي، وهذه الحرية في التصرف لطف مني، فأنا بالتأكيد لا أكذب عليه بشأن ما أفعل، بل سأختار عدم إهانته، بعدم إجباره على الاعتراف بعلمه عن علاقاتي.

يعدّ تغطية إخفاء الأكاذيب أكثر سهولة لاحقاً إذا ما اكتُشفت، فالكاذب لا يتمادى في زلات اللسان. وهناك الكثير من الأعذار المتاحة، كالجهل مثلاً، ونيّة البوح بالحقيقة لاحقاً، والنسيان، وما إلى ذلك. فالشخص الذي يشهد وهو تحت القسم قائلاً: على ما أذكر، يؤمّن مخرجاً إذا واجهه لاحقاً شيء ما كان قد أخفاه من قبل. وبادعاء الكاذب نسيان ما يتذكره، وحجبه المعلومات قصداً، يتبوأ موقعاً وسطاً بين الإخفاء والتزوير، حيث يحدث ذلك عندما لا يعود الكاذب قادراً على قول أيّ شيء آخر، وهذا السؤال مطروح، والتحدي قائم. بحجّة النسيان، يتجنب الكاذب اضطراره لتذكّر إفادة كاذبة، فكلّ ما عليه تذكره هو الادعاء غير الصادق بسبب ضعف ذاكرته، وإذا انكشفت الحقيقة لاحقاً، فإنّ الكاذب يستطيع الادعاء دائماً أنه لم يكذب، وأنّ ما حدث كان نتيجة قصور في ذاكرته ليس إلّا.

تبين فضيحة ووترجيت التي كانت السبب في استقالة الرئيس نيكسون إستراتيجية عدم التذكر، وبازدياد القرائن التي تكشف تورّط مساعِدَي الرئاسة هـ.ر. هالدمان، وجون إرلكمان في الاقتحام والتستر، أُرغما على تقديم استقالتيهما، واستُبدل ألكسندر هيج بهالدمان بتزايد الضغوط على نيكسون. «ولم يمضِ شهر على عودة هيج إلى البيت الأبيض

* تقدم إيف سويتر وجهة نظر طريفة تشير إلى أنّ المتلقِّي قد يشعر بغضب أكبر إذا أُعلم بكذبة مخفية مقارنة بالكذبة المزورة: (إذ لا يستطيع الأشخاص التذمر بسبب تعرضهم للكذب، لذا يشعرون كما لو أنّ خصومهم قد انسلّوا من خلال ثغرة قانونية).

فـي تاريخ 1973–6–4، حتى تناقش مع نيكسون في كيفية الرّدّ على المزاعم الخطيرة التي قدمهـا جون و. ديـن المستشار القانوني السابق فـي البيت الأبيض، والتـي نصح فيها هيج نيكسـون بالاستقالة، استناداً إلى الشريـط التسجيلي للنقاش الذي دار بينهما، وأصبح فيما بعد علنيّاً في أثناء التحقيق. حينها، طأطأ نيكسون رأسه بشأن هذه المزاعم وقال: لا أتذكّر ما جرى[9]».

لا يكـون النسيان جديـراً بالتصديق إلّا في ظروف محـدودة؛ لا يستطيع الطبيب الذي يُسـأل عمّـا إذا كانت الفحوص سلبية الادعـاء بعدم قدرته على التذكـر. كذلك، لا يستطيع الشرطـي ادّعاء النسيان إذا سأله المشتبه به عمّـا إذا كان في الغرفة جهاز تنصُّت مخفيّ. يمكـن ادّعاء النسيان في الأمـور البسيطة فقط، أو في أمور حصلـت منذ زمن طويل مضى وانقضـى. حتى إنّ التّقـادم لا يسوّغ نسيان الأحداث غير العادية التـي يتوقع أن يتذكرها كلّ شخص بصرف النظر عن وقت حدوثها.

يفقـد الكاذب قدرته على الإخفـاء أو التزوير إذا تحداه المتلقّي، فـإذا سألتِ الزوجة زوجهـا عن مكان وجوده وقـت الغداء، فعليه اللجوء إلى التزويـر للحفاظ على سرّيّة علاقته الغرامية. ويمكن القول أنّ سؤال مائدة الطعام المعتاد: كيف كان يومك؟ هو طلب للمعلومات، ولكن يمكن التهرب منه، ويستطيع الزوج ذكر أمور أخرى بهدف إخفاء اللقاء الغراميّ، ما لم يجبره سؤال مباشر على الاختيار بين التزوير أو قول الحقيقة.

تتطلـب بعض الأكاذيب تزويراً من البدايـة، إذ لا يكفي الإخفاء وحـده، فلم يكن على المريضـة النفسيـة ماري إخفـاء اكتئابها وخططهـا للانتحار فقط، بل كان عليهـا أن تزوّر مشاعرهـا بطريقة أفضل، وتبدي رغبتها في قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع عائلتها. لا يمكن الكـذب بشأن خبرة قديمة الحصول علـى وظيفة من خلال الإخفاء فقط، فليس إخفاء عدم الخبـرة ضروريّاً فقط، بـل يجب أن تكون السّيـرة الوظيفيّة ملفّقة بصـورة متقنة. ويتطلب التّهرّب من حفلة مملّة دون الإساءة للمضيف تزوير عذر مقبول، كالارتباط بموعد محدّد في صبـاح اليوم التالي الباكر، أو مواجهة مشـكلات مع جليسة الأطفال أو ما شابه ذلك لإخفاء تفضيل مشاهدة التلفاز في المنزل.

يحـدث التزوير أيضاً، حتى لو كانت الكذبـة لا تتطلب ذلك مباشرة؛ لمساعدة الكاذب على تغطية أدلة ما سيُخفى. إنّ استخدام التزوير لإخفاء ما هو مخفيّ ضروريٌّ عند الحاجة إلـى إخفـاء العاطفة، فمـن السهل إخفاء عاطفـة صادقة، ولكـن الأصعب إخفـاء العاطفة الصّادقـة في لحظـة الإحساس بهـا، خصوصاً إذا كانـت هذه العاطفة قويـة، حيث إن من الصعـب إخفاء الرّهبة مقارنة بالقلق، مثلما يصعب إخفاء الغضب مقارنة بالانزعاج، فكلما كانـت العاطفـة أقوى، كان تسـرّب إحدى علاماتهـا أكثر احتمالاً علـى الرّغم من محاولات يائسـة من الـكاذب لإخفائها دون جـدوى، إنّ الادعاء بوجود عاطفة أخـرى غير صادقة قد يساعـد علـى تمويه العاطفة الصّادقة التي تُحجب، إضافة إلى أنّ تزوير عاطفة ما قد يغطي على تسرب العاطفة المخفية.

يوضـح حدث فـي رواية جون أبدايـك (تزوجيني) هذه النقطة ونِقاطـاً أخرى وصفتها سابقـاً جيري؛ زوج روث. سمع مكالمتها الهاتفية مـع عشيقها ديك. في هذه المرحلة، كانت روث قـادرة على إخفاء علاقتها مع عشيقها دون حاجة إلـى التزوير. ولكن الآن، وبعد سؤال زوجهـا لها مباشرة عليهـا أن تلجأ إلى التزوير، في حين كان غرضهـا بالكذب إبقاء زوجها جاهلاً بشأن علاقتها، تبيّن هذه الحادثة أيضاً مدى سهولة تورط العاطفة في الكذب، وكيف يحدث ذلك. وعند تورطها، يصعب إخفاء ما يجب إخفاؤه.

لقـد أخـاف جيري زوجته من خـلال سماعه صوت إغلاق السماعـة بانتهاء محادثتها مـع ديك، لقـد كانت تعتقد أنّ زوجها يعمل فـي حديقة المنزل الخلفيـة. وعندما هَمَّ جيري بالخـروج من المطبـخ سألها: من كان على الهاتف؟ ذُعـرت روث: آه، أحدهم، امرأة ما من مدرسة الأحد تسأل ما إذا كنا سنسجّل جوانا وتشارلي في المدرسة[10].

لا يُعـدّ الذعـر بحدّ ذاته دليلاً على الكذب، ولكنه سيوقع جيري في براثن الشّكّ إذا ما لاحظـه؛ لأنه سيظـنّ أنّ روث لم تكن لتخف لو لم يكن لديها ما تخفيه. قد يخاف الأشخاص عنـد استجوابهم في حين أنهـم بريئون تماماً، أمّا المحققون فـلا يهتمون لذلك عادة، لكنّ الوضـع الـذي وقعت به روث بالغ الصعوبـة؛ لأنّ عدم توقع الحاجة إلـى التزوير يجعلها غير مستعـدة لاستجابتها التالية، وبسبب المأزِق الـذي تورطت به، ينتابها الذّعر لفكرة افتضاح أمرهـا، ولمـا كان إخفاء الذعر صعبـاً جدّاً، فإنّ ذلك يزيد من فرصـة إثبات شكوك جيري

لهـا بالخيانة. يمكنها تجريب حيلة محاولة الصدق حيال مشاعرها؛ فالمرجّح أنها لن تكون قـادرة علـى إخفاء ذلك، والكـذب بدلاً من ذلك بشـأن ما تسبب بتلـك المشاعر. وتستطيع الاعتـراف بالذعـر والادعاء أنها شعرت به لأنها تخـاف ألّا يُصدّقها، لا لأنّ هناك ما تخفيه عنه.

لا يحتمـل أن تنجـح روث إلا إذا كان هناك تاريخٌ سابقٌ طويـلٌ لأحداث لم يُصدِّق فيها جيـري زوجته، وثبت لاحقاً براءتها فيها، وبذكرها اتهامات جيـري غير المعقولة لها سابقاً في هذه الحالة، ربما يمكنها صرفه عن ملاحقتها بالأسئلة.

ربمـا لـن تنجح روث إذا حاولت أن تبدو هادئة، ووجهها جامد غير متأثر بتاتاً، فعندما تبدأ يدها بالارتعاش يكون من الأسهل شغلها بشيء ما، كأن تشكّل قبضة بها، أو تطويها بدلاً مـن تركها متدلية وساكنة. وعندما تضيق الشفـاه وتتوسع، وترتفع الجفون والحواجب العليا بسبـب الخوف، يصبح مـن الصعب الحفاظ على وجـه ساكن، ويمكن إخفـاء هذه التعابير إخفـاءً أفضـل من خـلال إضافة حركات عضـلات أخرى لهـا، مثل صرّ الأسنـان، وضغط الشفاه، وخفض الحاجب، والحملقة.

إنّ الطريقـة المثلى لإخفاء العواطـف القوية إلباسُها قناعـاً، إذ لا يمكن تغطية الوجه أو جـزء منـه باليـد، أو إشاحة الوجه عـن الشخص الذي تتحدث معـه دون وجود كذبة ما، والقنـاع الأفضل في مثل هذه الحالة هـو العاطفة الزائفة؛ فهي لا تضلّل فقط، بل تُعدّ أفضل تمويـه. حيث من الصعب المحافظة على الوجه جامدا، أو الأيدي ساكنة عندما تكون إحدى العواطـف صادقة بقوة، ويصعب كذلـك المحافظة على مظاهر الجمود والهدوء أو الاعتدال عندمـا تكون العاطفـة صادقة، ويكون من الأسهـل التوقف، أو مواجهـة مجموعة أخرى من حركات تعابير العاطفة الصّادقة.

وبعـد لحظات في قصة أبدايك، يخبر جيري زوجته أنـه لا يصدقها، يفترض أن يزيد ذلـك في ذعرها، ويجعل إخفـاءه أصعب. يمكنها اللجـوء إلى الغضـب أو المفاجأة بإلباس خوفهـا قناعاً؛ يمكنها تحدي جيري بغضب لعدم تصديقه إياها، والتّلصّص عليها، ويمكنها كذلك أن تبدو مندهشة لعدم تصديقه، وأنه كان يصغي خلسة إلى محادثتها.

لا تسمح الحالات جميعها للكاذب بتغطية الشعور الذي يحسّ فيه، وتتطلب بعض الأكاذيب مهمة إخفاء المشاعر الأكثر صعوبة دون تزوير. وقد وصف عزرا وايزمان – وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق – صعوبة مثل هذا الوضع.

عُقدت محادثات عسكرية بين إسرائيل والمصريين لإطلاق المفاوضات بعد زيارة أنور السادات المفاجئة للقدس. وخلال إحدى جلسات المفاوضات، قال محمد الجَمَسي رئيس الوفد المصري المفاوض لوايزمان: إنه قد علم توّاً أنّ الإسرائيليين يقيمون مستوطنة أخرى في سيناء، يعلم وايزمان أنّ مثل هذا العمل قد يعرّض المفاوضات للخطر؛ حيث إنّ موضوع احتفاظ إسرائيل بأيّ من المستوطنات الحالية ما يزال موضع خلاف.

يقول وايزمان: لقد كنت غاضباً جدّاً، على الرغم من عدم إمكانيتي في التنفيس عنه أمام الآخرين، فقد كنّا نناقش الترتيبات الأمنية، محاولين دفع عربة السلام دفعة قصيرة إلى الأمام، وبدل أن يدرك زملائي في القدس أخطار بناء المستوطنات الزائفة، كانوا يشيدون واحدة في الساعة التي دارت فيها المفاوضات[11]».

لم يكن وايزمان يسمح لغضبه على زملائه في القدس بالظهور، فأتاح له إخفاء هذا الغضب أيضاً إخفاء أن زملاءه في القدس لم يشاوروه، وكان عليه إخفاء مشاعر قوية دون تمكنه من استخدام أيّ مشاعر أخرى قناعاً لها، ولن يفيد التظاهر بالسعادة، أو الخوف، أو الأسى، أو المفاجأة، أو الاشمئزاز؛ وكان عليه الظهور بمظهر اليقظة والفتور، وألّا يقدّم ما يدلّ على أنّ معلومات الجمسي كانت مهمة؛ ولكن كتابه لا يفيد أنه قد نجح في ذلك.

تعد لعبة ورق الشّدّة (البوكر) حالة أخرى، لا يمكن استخدام الأقنعة فيها لإخفاء عواطف اللاعبين؛ فعندما يصبح لاعب ما حماسيّاً تجاه احتمال الفوز بمبلغٍ ماليٍّ كبير بسبب الأوراق التي سحبها، فإنّ عليه إخفاء أيّ علامة على سعادته حتى لا يحجم اللاعبون الآخرون عن اللعب، وستكون التغطية بأيّ عاطفة أخرى خطيرة. وإذا حاول إخفاء سعادته، كأن يبدو خائب الأمل أو منزعجاً، فسوف يظن الآخرون أنه قد سحب ورقة غير رابحة، ويتوقعون منه الانسحاب وليس البقاء في اللعبة. وعلى وجهه أن يبدو خالياً من العاطفة.

وإذا قرّر إخفاء خيبة أمله أو انزعاجه من الأوراق غير الرابحة التي سحبها، من خلال الخـداع ومحاولة إجبار الآخرين على الانسحاب، فلربمـا استطاع لبس قناع لذلك. وبتزوير السعـادة والإثارة، يستطيع إخفـاء خيبة أمله، وإضافة انطباع أنّ لديـه أوراقاً رابحة جيدة. ولكـنّ اللاعبين الآخرين لن تنطلي عليهم هذه الحيلة إلا إذا عدّوه لاعباً مبتدئاً. يفترض أن يتقن لاعـب البوكر الخبير موهبة إظهار العاطفه تجاه أوراقه المسحوبة.* (إنّ عدم الصدق فـي لعبة البوكر والإخفاء والخـداع لا يتناسب مع تعريف الكذب الذي قدمته، فلا أحد يتوقع أن يكشـف لاعبـو البوكر الأوراق التي يسحبونها، إذ إنّ اللعبـة نفسها تقدم إشعارات مسبقة تفيد بمحاولة تضليل اللاعبين بعضهم بعضاً).

يمكـن تزوير أيّ عاطفة تساعد على إخفاء عاطفة أخرى، وتعد الابتسامة القناع الأكثر استخداماً، فهي نقيض للعواطف السلبية جميعها؛ كالخوف، والغضب، والأسى، والاشمئزاز، وما إلى ذلك. ويتم اختيارها عادة؛ لأنّ بعض أنواع السعادة هي الرسالة المطلوبة لجعل أكثر الخـدع تنطلي على الآخرين، وعلـى الموظف الذي يشعر بخيبة أمـل الابتسام إذا كان يريد التّمويه على مديره أنه غير مبالٍ، أو أنه ليس غاضباً حيال تخطيه في الترقية. وباللجوء إلى مبـادرة حُسن نية في أثناء انتقاداتها الجارحة، على الصديقة القاسية التوقف والاستعاضة بابتسامة المهتم.

والسبـب الآخـر لاستخـدام الابتسام بكثرة فـي الإخفاء يعود إلى أنّه جـزء من التحية المتعـارف عليها، وهو مطلوب بكثـرة في معظم التعاملات التي تتسـم بالكياسة، فإذا شعر شخص ما بشعور سيّئ، فليس عليه عادة إظهاره أو التصريح به عند الرّدّ على تحية الآخرين. وبـدلاً من ذلـك، يفترض به إخفاء مشاعره السيئة بابتسامة مهذّبة لترافق عبارة: أنا بخير، شكراً، ردّاً على سؤال: كيف حالك اليوم؟

* في دراسة لاعبي البوكر، يصف ديفيد هايانو نمطاً آخر يُستخدم من قبل المحترفين؛ حيث يعمد هؤلاء إلى الدردشة المتحركة باستمرار طوال اللعب لجعل خصومهم يشعرون بالقلق والتوتر .... وقول الحقائق على أنها أكاذيب وقول الأكاذيب على أنها حقائق. إضافة إلى حركات الأداء اللفظي، والثرثرة، واللفتات المصطنعة المبالغ فيها... وكما وصفت أحد اللاعبين من هذا الطراز بالقول: يقوم بحركات أكثر مما تقوم بها راقصة شرقية. («بوكر أكاذيب وحكايات» سلوك الإنسان، مارس 1979، ص 20).

ويرجح ألّا تنكشف العاطفة الحقيقية، ليس لأنّ الابتسامة قناعٌ جيّد، ولكن لأنّ اهتمام الأشخاص في التعاملات التي تتسم بالكياسة نادراً ما تهتمّ بشعور الشخص الآخر، وكلّ ما هو متوقع التظاهر بالمحبة واللطف؛ لأنّ الآخرين قليلاً ما يعيرون هذه الابتسامات أهمية، وهم معتادون صرف الطرف عن الأكاذيب في سياق التعاملات المهذبة، فقد يرى بعضهم أنّ من الخطأ تسميتها بالأكاذيب؛ لأنّ القواعد الضمنية لمثل هذه المواقف الاجتماعية التي تتسم بالكياسة تشير إلى أنّ العاطفة الحقيقية لن تُقدَّم على حقيقتها من قبل الآخرين.

وهناك سبب آخر في أنّ الابتسام قناع شائع الاستخدام هو سهولة التّحكّم في تعابير الوجه إراديّاً، يبتسم الأطفال عن قصد قبل أن يكملوا السنة من عمرهم. تعدّ الابتسامة من السلوكات المبكرة التي يلجأ إليها الأطفال عن قصد لإرضاء الآخرين. تقدم الابتسامات الاجتماعية غير الصادقة العاطفة المطلوبة أو التي يعدّ إظهارها مفيداً، وليس ما يشعر به المبتسم حقيقة. ويمكن ارتكاب الأخطاء في توقيت الابتسامات التي لا يشعر بها الشخص؛ فقد تكون سريعة جدّاً أو بطيئة جدّاً، وقد تكون الأخطاء واضحة أيضاً في مكان الابتسامة. فقد تحدث باكراً قبل قول الكلمة أو العبارة التي يجب أن ترافقها أو بعدها، ولكن حركات الابتسامة بحد ذاتها سهلة، بعكس تعابير العواطف الأخرى.

من الصعب تزوير العواطف السلبية لدى معظم الأشخاص، فقد وجدت من خلال البحث الذي أجريته، والوارد في الفصل الخامس، أنّ معظم الأشخاص غير قادرين على تحريك العضلات المطلوبة لتزوير الخوف والأسى بصورة حقيقية إراديّاً، علاوة على ذلك يُعدّ إظهار مشاعر الغضب والاشمئزاز أكثر سهولة عندما لا يشعر الشخص فيها، ولكن الأخطاء تقترف في ذلك، وإذا تطلب الكذب تزوير عاطفة سلبية بدلاً من الابتسام، فقد يجد المخادع في ذلك صعوبة، ولكن هناك استثناءات لذلك. لقد كان هتلر ممثلاً قديراً وقادراً على تزوير العاطفة السلبية بإقناع وبسهولة.

فقد بدا هتلر في اجتماعه مع السفير البريطاني غاضباً وغير قادر على مناقشة الأمور أكثر من ذلك، وقد أفاد مسؤول ألماني كان موجودا في المكان قائلاً: حال خروج السفير من المكان ربّت هتلر على فخذه وضحك قائلاً: لن يكون تشامبرلين قادراً على متابعة هذه الحادثة، وسوف تسقط وزارته هذا المساء[12]».

هنـاك طرق أخـرى للكذب إضافـة إلى الإخفـاء والتزوير، وقد اقترحـت واحدة منها بالفعل، تمثلت في التفكير بما يمكن أن تقوم فيه روث للمحافظة على خداعها على الرغم من ذعرها بسبب المحادثة الهاتفية التي سمعها زوجها فيها في رواية جون أبدايك (**تزوجيني**). فبـدلاً مـن محاولة إخفاء الذعـر الذي يعدّ أمـراً صعباً، يمكنها الاعتـراف بالذعر والكذب بسببه، وبتزوير تحديد سبب وجود تلك العاطفة، يمكنها الادعاء بالبراءة التامة، وعزو سبب ذعرها إلى خشيتها من عدم تصديق جيري لها. لو سأل المحلل النفسي المريضة ماري عن سبب توتّرها، يمكنها مثـلاً التسليم بشعورها بالذّعر، ولكنها تستطيع تزوير تحديد مسببه، بقولهـا: أنا متوتـرة لأنني أرغب بشدة في قضـاء الوقت مع عائلتي ثانيـة. إنّ الصدق حيال الشعور الذي نحسّ به يضلّل الكذب بشأن سبب وجوده.

أمـا التقنية الأخرى ذات الصلة، فهي قول الحقيقة مـع قليل من التحريف، كي تنطلي علـى المتلقّي؛ الحقيقـة المزوّرة. فعندما سأل جيري روث عـن الشخص الذي هاتفها، كان بإمكانها الردّ بما يأتي: آه، لقد كنت أتحدث مع حبيبي، فهو يتصل كلّ ساعة. ولمّا كنّا نلتقي ثلاث مرات في اليوم، فلا بدّ لنا من التواصل باستمرار لترتيب اللقاء، قد تجعل المبالغة في الحقيقة تساؤل جيري يبدو سخيفاً، مما يجعل متابعته لشكوكه أمراً صعباً، ويمكن للأسلوب التهكمـي إحداث التأثير نفسه. وقد وُصف المثال الآخر على قول الحقيقة المزورة في كتاب روبـرت دالي، والفيلم الذي اقتبـس منه «**أمير المدينة: القصـة الحقيقية للشرطي الذي عرف الكثير**»، وكما يدعي العنوان الفرعي، هذا واقع حقيقي وليس خيالاً.

روبـرت لوسي؛ شرطيّ أصبح مخبـراً سريّاً فيما بعد، ويعمـل لمصلحة المدعي العام للحصـول علـى قرائن وجود فساد إجرامي بين رجال الشرطـة، والمحامين، ووكلاء إطلاق السراح المشـروط، ومروجي المخدرات، وأعضاء المافيا. وقـد حصل على معظم القرائن مسجلـة علـى شريط مخفي في ملابسه. في لحظة ما، تمّ الشّـكّ بلوسي على أنّه مخبر. فلو أُمسك به وهو موصول بجهاز التنصت فستكون حياته في خطر. يتحدث لوسي مع ديستيفانو أحد المجرمين الذي كان يحاول الحصول على قرائن تدينه: دعنا نجلس بعيداً عن الحاكي (الفونوغراف) الليلة لأني لا أستطيع الحصول على صوت واضح.

ديستيفانو: هذا ليس مضحكاً.

يبـدأ لوسـي بالتّظاهر أنه يعمل مـع الحكومة، وكذلك النادلة في نهايـة الغرفة، والتي تضع جهاز إرسالها في.....

ضحك الجميع، ولكن ضحكة ديستيفانو كانت باهتة[13]».

هـزأ لوسـي من ديستيفانـو، وأخبره بوقاحة بالحقيقـة؛ إنّه لا يستطيـع الحصول على تسجيـل واضح بجانـب الفونوغواف، وأنه يعمل لـدى الحكومة. من خـلال الاعتراف بذلك بصراحـة تامـة، ومن خلال المزاح حيال وضـع النادلة لجهاز تسجيل أيضـاً في صدريتّها، جعل لوسي متابعة ديستيفانو لشكوكه أمراً صعباً دون أن يبدو غبيّاً.

إنّ نصـف الإخفـاء هو قول الحقيقـة مزورة. فقد قيلـت الحقيقة جزئيّـاً، فالتصريح المقتضـب، أو عدم ذكر العبارة الأهـم، يتيح للكاذب المحافظة على الخداع دون قول ما هو غير صادق. وبعد الحالة التي اقتبستها من كتاب (**تزوجيني**)، يعانق جيري زوجته في المساء، ويسألهـا عن اسم عشيقها. تجيب: أحبك أنت، وكذلـك جميع الحمام على الشجرة، وكلاب البلدة جميعها ما عدا التي تعبث بحاوية النّفايات خاصتنا، والقطط جميعها باستثناء القطّ الـذي يجعل قطتي حبلى. أحب أيضاً رجال الإنقـاذ عند الشاطئ، وشرطة وسط المدينة ما عـدا الذي صاح بوجهي عندما استدرت في الشارع، وأحب كذلك بعض أصدقائنا الفظيعين وخصوصاً عندما أثمل....

وما مدى محبتك لـ ديك ماثياس؟

لا بأس به[14].

والتقنيـة الأخرى التـي تتيح للكاذب تجنب قولّ أيّ شيء غيـر صحيح هي تقنية خدعة الاستـدلال الزّائـف؛ قدم أحد كتـاب الأعمدة في إحـدى الصحف تفسيـراً مضحكاً لكيفية استخـدام هذه الخدعـة لحلّ مشكلة مألوفة، بما يجب أن يقـال عندما لا يعجبك عمل زميل لـك. لنفترض حضورك افتتاح معرض فني لأحد زملائك – علـى افتراض أن اسمه جيري – وترى أنّ رسومه قبيحة، ولكن قبل أن تسلك طريقك إلى الخارج، يندفع زميلك مستفسراً عن رأيك بلوحاته.

فتقـول: جيـري، وتحملق بعمق بعينيه كمـا لو غلبتك العاطفة، جيـري، جيري، جيري، وتسكـت. وتشـدّ على يده، وتحافـظ على تواصل عينيـك بعينيه. حينهـا، أراهنك أن جيري سيفلت يده من يدك، ويتمتم بعبارة أو اثنتين ويتحرك مبتعداً..... هناك احتمال لفهم أكثر مـن شيء بهذا السلوك؛ فهناك نغمة الناقد الفنـي المرتفعة بضمير الغائب ذات الخطوتين مثـل: جيري، جيـر – ري. ماذا يمكـن أن أقـول؟ أو النغمة المنخفضـة المخادعة: جيري، أنـا عاجـز عن الوصـف. أو الصيغة الأكثر سخريـة: جيري، كلّ شخص يتكلـم عن عملك ، كلّ شخص[15]. تكمن أهميّة هـذه المناورة، مثل نصف الإخفاء والحقيقـة المزوّرة، في أن الكاذب غير مجبر على قول أيّ شيء غير صادق، ولكنني أراها أكاذيب على الرغم من ذلك؛ لأنّ هناك محاولة متعمدة لتضليل الضحية دون إشعارها مسبقاً بذلك.

يمكـن فضـح أيّ من هذه الأكاذيب مـن خلال بعض جوانب سلـوك المخادع؛ فللخداع نوعان من القرائن، قد يكشف الخطأ الحقيقة أو قد يشير إلى أنّ ما قيل أو ظهر غير صحيح دون كشـف الحقيقـة. فعندما يكشف الـكاذب بطريق الخطـأ الحقيقة، أدعو ذلـك تسرّباً. وعندما يشير سلوك الكاذب إلى كذبه دون كشف الحقيقة، أدعو ذلك دليل خداع.

فلـو لاحظ طبيب مـاري أنها تفـرك يديها عندما كانـت تخبره بتحسّـن حالها، لكان لديـه دليـل على خداعهـا وسبب للريبة في كذبهـا، ولكنه لن يعرف حقيقـة شعورها، فربما كانـت مستاءة من المستشفـى، أو من نفسها، أو خائفة بشأن مستقبلهـا، إلا إذا علم بوجود تسـرّب مـا، مثل تعبير وجه، أو نبرة صوت، أو زلة لسان، أو إيماءة معينة قد تشي بمشاعرها الحقيقية.

يجيـب دليل الخداع عن سـؤال ما إذا كان الشخص كاذبـاً أم لا، على الرغم من عدم كشفـه لما هو مخفـيّ. والتسرب فقط هو القـادر على كشف ما خفي. ولكـن ذلك غير مهم فـي كثير من الأحيان. وعندما يكون السـؤال عمّا إذا كان الشخص كاذباً أم صادقاً بدلاً من عمّـا هـو مخفي، يكون دليل الخداع جيـداً وليست هناك حاجة إلى التسـرّب. ويمكن معرفة المعلومات التي جرى إخفاؤها، أو المعلومات غير المرتبطة، إذا أحسّ ربّ العمل بوجود دليل خـداع يفيد أنّ مقدم الطلب يكذب، فقد يكون ذلك كافياً، ولن تكون هناك حاجة إلى تسرّب ما يجري إخفاؤه لاتخاذ قرار بعدم تعيين مقدم الطلب الذي يكذب.

ولكـن ذلـك ليس كافياً دائماً، وربمـا تكون معرفة المخفي بالتحديـد مهمة، فقد يكون اكتشـاف الموظـف الموثوق بـه هو المختلس غيـر كافٍ، فربمـا يشير دليل الخـداع إلى أنّ الموظـف قد كذب؛ وربما يؤدي ذلك إلى مواجهته واعترافه. وحتى بعد تسوية الأمر وصرف الموظـف وانتهـاء المحاكمـة، قد يكـون ربّ العمـل ما زال يبحث عـن تسـرّب، وربما يكون ساعيـاً لمعرفـة كيف قام هذا الموظف بفعلته، وماذا فعل بالنقـود التي اختلسها، لو اكتشف تشامبرلين قرائن الخداع لدى هتلر لعرف أنه يكذب، وربما يكون ذلك في تلك الحالة مفيداً في الحصول على تسرّب بشأن خططه في الغزو، وإلى أيّ مدى كان ينوي الذهاب في خططه الحربيـة. يقدم التسرّب أحياناً جزءاً من المعلومة التي يريد المتلقّي معرفتها، ويفضح أكثر من دليل الخداع، ولكنه لا يكشف كلّ ما خفي، تذكّر ما حدث لروث عندما ذُعرت غير متأكدة من القدر الذي سمعه زوجها من حديثها الهاتفي مع عشيقها.

لربمـا كانـت قادرة علـى القيام بشـيء يفضح ذُعرهـا، وارتجاف شفتيهـا أو جفنيها العلوييـن عندما سألها جيري عن المكالمة التي استقبلتها. وبالنظر إلى السياق، ربما يشير تلميح الذعر إلى كذب روث، وإلى قلقها حيال هذا السؤال، ولكن هذه القرينة لن تنفع جيري فـي معرفة ما كانت روث تكذب بشأنـه، أو مع من كانت تتحدث، لقد حصل جيري على جزء من تلك المعلومة من التسرب الذي تمثّل بصوت روث:

.... لقد كانت نبرة صوتك، (يفسر جيري لروث لماذا لا يصدق تفسيرها حيال من كان معها على الهاتف).

فتجيب: حقّاً، وكيف ذلك؟ وأرادت أن تقهقه.

حـدّق جيـري في الفضاء كما لـو كان يشاهد منظراً جميلاً، وبدا ما يحـدّق فيه شابّاً، نحيلاً، قصيرَ الشّعر. (لقد كان مختلفاً) أكمل جيري: .. أكثر دفئاً، كان صوت امرأة.

روث: أنا امرأة.

جيـري: عندمـا تتحدثين معي، يبدو صوتـك صبيانيّاً تماماً[16]. ثم قـال بعد تفكير: لا يتناسـب الصـوت الذي تحدثت به في الهاتـف مع معلمة مدرسة الأحد، بـل يصلح للتحدث مـع عشيق، يتسرب لجيـري أنّ خداعها ربما يشـي بوجود علاقة غراميّة، ولكـن التّسرّب لا يشـي بالحقيقة كاملة. لا يعرف جيـري ما إذا كانت العلاقة توشك أن تبدأ أو أنها بدأت منذ

مدة، ولا يعرف أيضاً من هو العشيق، ولكنه يعرف أكثر مما يمكن أن يعرفه من مجرد قرينة خـداع تشير إلى أنها تكذب. لقد عرّفت الكذب بوصفه خياراً مقصوداً لتضليل المتلقّي، دون إعطـاء إشعار مسبق للقيـام بذلك، وأنّ للكذب شكلين رئيسين؛ الإخفاء والتزوير، ففي حين يعنـي الإخفاء حجب معلومـات صحيحة، فإنّ التزوير يشير إلى تقديـم معلومات زائفة على أنّهـا حقيقية، وتشتمل طـرق الكذب الأخرى على: سوء التوجيـه، أو الإقرار بالمشاعر ولكن إخفـاء مـا يسببها، وقول الحقيقـة مزورة، أو الإقـرار بالحقيقة المبالغ فيهـا، أو نكتة تبقي المتلقّـي مضلَّلاً أو غيـر عالم، أو نصف الإخفـاء، أو الاعتراف بجزء مـن الصدق لصرف اهتمـام المتلقّي عمـا بقي مخفياً، وخدعة الاستـدلال غير الصحيح، أو قـول الصدق ولكن بطريقـة تنطوي علـى عكس ما قيل، وذكرنا أيضـاً نوعين من قرائن الخـداع، هما التسرّب ودلائل الخداع؛ فالتسرّب يعني قول الحقيقة عن طريق خطأ من الكاذب. في حين يشير دليل الخداع إلى معرفة كذب الكاذب عن طريق سلوكه دون كشف الحقيقة.

يُعد التسرب ودلائل الخداع أخطاء، وهي لا تحدث دائماً، إذ لا تنكشف الأكاذيب كلّها. ويفسر الفصل التالي سبب انكشاف بعضها.

openkandl.com